مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

الشَّهِيد

عُثْمَانُ مَدُّورُ

1960 - 1920

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

الشهيد

عُثْمَانُ مَدُّورُ

1960 - 1920

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2012

ر . د . م . ك : 978-9931-312-23-9
الإيداع القانوني : 2012-3794

المتحف الوطني للمجاهد

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 – 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

البريد الإلكتروني : mnm@museenat-moudjahid.dz

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

كانَ الفَصْلُ صَيْفًا، لكِنَّ شمسَ الفاتحِ من شهرِ جويلية 1960 انْطَمَسَ نورُها، وغُيِّبَ عنِ قُلوبِ أَهَالِي مدينةِ «ڤالمة»، بِسبَبِ ما فَعلَهُ العدُوّ بِجُثمانِ الشّهيد عثمان مدّور.

فَيَوْمَ ذاك خَرجَ سُكّان المدينةِ إلى شُرُفاتِ مَنازِلِهم، والحزْنُ والأسَى يَعْتَصِرَانِ قلوبَهم، ليشاهدُوا جُثّمَانَ الشَّهيدِ الطّاهرَ الذي كَانَتْ تَحْمِلُهُ سيّارةٌ عسكريّة تَجُوبُ به شَوارِعَ المَدينةِ، لإدخالِ الخَوفِ والرُّعْبِ في قلوبِ الْمُواطِنينَ، بعدَ سقوطِه شهيدًا فِي ميدانِ معركةٍ طاحنةٍ وقعت بِجبَلِ «إيدوغ».

كانتْ «زهْراءُ» تُطِلُّ منْ شُرْفَةِ مَنْزِلِها؛ وما إنْ وقَعَ بَصَرُها على جُثَّةِ الشّهيدِ حتى أَطْلَقَتْ حُنْجُرَتُها

زُغْرودَةً مُدَوِيَّة، تَبِعَتْها زَغاريدُ أُخْرَى انْطَلَقتْ منَ البُيوتِ المُجاوِرَةِ، فاخْتَلَطَتْ زَغاريدُ نِساءِ وبناتِ «قالمة»، بِتَكْبيراتِ رجالِها وشُبّانِها.

أَدْرَكَ العَدُوُّ أنَّهُ من العَبَثِ تَخْويفُ الأهالي بِمِثْلِ تِلكَ الأساليبِ الاسْتِفْزازِيّةِ، فأسْرَعَتِ السّيارَةُ العسْكرِيَّةُ التي كانت تَحمِلُ جثمانَ الشَّهيدِ للابْتِعادِ به عن أعيُنِ أهالِي المدينةِ الذين خرج بعضُهم منْ بيوتِهم لتَوْديعِه. بيْنَمَا بَقِيَتْ «زَهراءُ» تُتابِعُ من شرفَتِها المَوْكِبَ الرَّهيبَ حتّى اخْتَفى عنِ الأنْظارِ.

قضَتِ البِنْتُ لـيْلَتَها وفِكْـرُها مشغـولٌ بِما شاهدتْ، وشَعرتْ بِأنَّ زُغْرودةَ العِزَّةِ والشُّموخِ التي أطْلَقَتْها نَسَجَتْ خَيْطًا خَفيّا بَيْنَها وبَيْنَ الشَّهيدِ، الّذي التحقَ بركْبِ الشّهداء في ذلك اليوم، فلمّا

نامتْ رأتْ رُؤيَا عجيبــةً؛ رَأتِ الشّهيدَ وهو يَقولُ لها: لكمْ أسْعَدَتْني زُغْرودَتُكِ! شُكرا على هَديَّتِكِ العَطِرَةِ يا زهراءُ.

فسألتهُ مُنْدَهِشَةً: أحقًّا سَمِعْتَها؟!

ردَّ عُثمانُ مُبْتَسِما: ألا تَحْفَظــين قوْلَهُ تعالى {ولا تَحْسِبنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أمْواتًا، بلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...}.

فقالت: هَـنيئًا لك فَــوزُك بالشّهادَةِ، فمــن أنْتَ؟

فقال لها: » اسْألِي عنّي رَفيقَ الدَّرْبِ والشَهادَةِ، وأشارَ إلى رَجُلٍ وَسيم، قَدِمَ في تلك اللّحظةِ، وجَلسَ بِجانِبِهِ، فبادَرَتْهُ «زهراءُ» بقولها: ومَنْ أنْت؟

فقال: أنا عبدُ الرحمنِ طبّوش؛ شاءَتْ إرادَةُ اللهِ أنْ أُسْتَشْهَدَ بِمَعِيَةِ أخي عُثمانَ مَدّور الذي طالَمَا طارَدَهُ جُنودُ العَدُوّ، من أجْلِ القضاءِ عليْه.

فقالت: لِمَ كُلُّ هذا الحِقْدِ على رفيقك؟ ولِمَاذا جابَتْ سيارَةُ العَدُّوِ شَوارِعَ المدينَةِ بِجُثْمانِهِ الطّاهِرِ؟ هذِه -واللهِ- وَحْشِيّةٌ، وقَسْوَةٌ كَبيرةٌ.

فقال لها: لأنَّ رفيقي عُثْمانَ دَوَّخَ العدوّ، وأعْياهُ بِصُمودِهِ وشُموخِهِ وبُطُولاَته.

التفتت زهراءُ في تِلكَ اللَّحْظةِ إلى عُثمانَ مدّور فَوَجدْتُه قدِ اخْتَفَى، فسألتْ عنه عبد الرحمنِ: إلَى أيْنَ ذهبَ رَفِيقُ دَرْبِكَ؟ لقدْ كانَ جالِسًا بِجانِبِكَ يا سيدي؟!».

تَبَسَّمَ عبدُ الرحمنِ، وقال: أخي عُثْمانُ لا يَرْغَبُ فِي الحديثِ عنْ بُطولاتِهِ، لأنّه رجُلٌ باعَ نَفْسَهُ للهِ،

ثُمَّ للقَضِيَّةِ الْجزائريّةِ الْعادلةِ، التي عاشَ وماتَ منْ أجْلِها، لذلِكَ انْصَرَفَ، وتَركَنا.

صَمتَ عبدُ الرحمنِ هُنَيْهةً، ثم قال: اعْلَمي يا «زهـراءُ» أنَّي كنتُ عضواً في النّاحيةِ الرابعةِ بمَنْطِقةِ جَبَلِ «إيدوغْ» التي كانَ عُثمانُ مسئولاً عليها، فأُعْجِبْتُ بشَخْصيّتِه الفَذَّة؛ فهو رجُلٌ نذَرَ نفْسَه لخِدْمة الجزائرِ، وقَضيّتِها العَادِلَةِ؛ لقَدْ رضَعَ مُنذُ طفولَتِهِ من لِبَانِ الشُّمُوخِ والعِزَّةِ والإبَاءِ.

زهراء: حدّثْنـي عَنْ نَـشْأَتِه.

عبد الرحمن: وُلِدَ سنة 1920 بقَريَـــةِ «عَيْن احْسَايْنيّه» التّابعَةِ لِولايَةِ قالمة، وَسَطَ أُسْرَةٍ مَعروفَةٍ بتَمَسُّكِها بدِينِها ونِضالِها وتضْحياتِها. حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ، وهُو في سِنٍّ مُبَكِرَّةٍ، فازْدادَ تَمَسُّكًا بدِينِه، ولُغَتِهِ التي عَمدَ المُسْتَعْمِرُ إلى مُحاولَةِ مَحْوِ أثَرِها

بِشَتىَّ السُّبُلِ. انتقَلَ عامَ 1934 إِلَى مدينةِ قَسَنْطينَةَ حيثُ تابَعَ دراسَتَهُ بمدْرَسةٍ حرَّةٍ تابِعَةٍ لجمْعيةِ العلُماءِ الْمُسْلِمين الجزائرِيّين. وبعْدَ أنْ قَضَى مُدَّةً بِقَسَنطينةَ، عادَ إلى مَسْقَطِ رَأْسِهِ، لِيشْتَغِلَ في مَيْدانِ البِناءِ إلى جانِبِ النَّشاطِ الفِلاحيّ مَعَ والِدِهِ.

تَعَرَّضَتْ أُسْرَتُهُ كغَيرِها منَ الأُسرِ الجزائِرِيّةِ المُناضِلَةِ، إلى كلِّ مَظاهِرِ القَهْرِ والاسْتِغلالِ البَشِعِ من طَرَفِ الاسْتعْمارِ، مِما أَلْهَبَ في نَفْسِهِ روحَ الجِهادِ، والنِّضالِ، الذي لمْ تَخْبُ جَذْوَتُهُ في نفْسِه حتّى قَضَى نَحْبَهُ.

زهراءُ: »أيْنَ بدأَ نِضالَهُ السّياسِيَّ؟

عبدُ الرحمنِ: » بدَأَهُ في قَريةِ «عينْ احْسايْنِيّه»، وهوَ لا يزالُ شابًّا بانْخِراطِه في صُفوفِ حِزْبِ الشّعبِ، فَنَاضَلَ ضِمْنَ خَلِيَّةٍ من خَلايَاهُ، وَتَلَقَّى فيها دُروسًا

في حبِّ الوطنِ، كما اطّلَعَ على كثيرٍ مِنَ الحقائقِ الْمُتعَلّقَةِ بالأَوضاعِ الْمَأْسويةِ لأَبْناءِ وَطَنِه؛ فتَوسَّعتْ مَداركُهُ، وقَويَتْ عَزيمَتُهُ على مُجابَهَةِ المُحْتَلِّ، وتَعرّضَ لعدّةِ مِحَنٍ، كانَ لها دَورٌ كبيرٌ في تكوينِ شَخْصِيّتِهِ الثّوْرِيّةِ الفَذَّةِ.

زَهراءُ: حدّثْني عَن هذه الْمِحَنِ مِن فضْلِك.

عبد الرحمن: استُدْعِيَ لأَداءِ الخِدْمةِ العَسْكَرِيّةِ الإِجْباريّةِ عام 1941 بوهرانَ، ومِنها نُقِلَ إِلَى فَرنسا، ليُشارِكَ إِلَى جانبِ الجيشِ الفَرنسيِّ في حرْبِهِ ضِدَّ ألمانيا إبّانَ الحربِ العالميّةِ الثّانيةِ؛ ولَكمْ حدّثَني عَن تِلكَ الفَتْرةِ المُؤلِمةِ من حَياتِه. ومِمّا قالَه لِي عَن تِلكَ الْمِحنَة: «لقدْ شارَكْتُ في حرْبٍ ليْستْ حرْبِي، وضِدَّ عَدُوٍّ ليْسَ عَدُوِّي، وعلى أرضٍ لم تكُنْ أرضي. ولكَمْ دَعوْتُ الله طيلةَ سنواتِ التَّجْنيدِ ألاَّ أموتَ

في أرْضِ الظُّلم والغُربَةِ (فَرنسا)، وأن يُكْرِمَني اللهُ بالشَّهادَةِ على أَرْضِ بِلاَدِي الأبِيَّةِ».

زهراءُ: » الحمدُ للهِ الذي اسْتجابَ لِدُعائهِ.

عبد الرحمن: لا تَظُنِّي -يا زهراءُ- أنّ عُثْمانَ لم يَسْتَفِدْ من التّجْنيدِ؛ فلقدِ اكْتَسبَ مَعارِفَ عسْكريّةً بِتَطبيقاتِها الميْدانيّةِ، كما حصلَ على خِبْرةٍ وحُنْكَةٍ، جرّاءَ احْتِكاكِهِ بغيْرِهِ منَ المُجَنّدينَ الجزائريّينَ، فوظّفَ كُلّ ما تَعَلّمَهُ أثْناءَ جِهادِهِ ضِدّ المُحْتلِّ.

زهراءُ: ماذا فعلَ بعْدَ تسْريحِه مِنَ الْخِدمةِ العَسْكَريّة؟

عبدُ الرحمنِ: «بعدَ تسْريحِه عادَ إلَى قَرْيتِهِ وهو أكْثَرُ وعْيًا، وأعْمقُ تجْرِبَةً، فاسْتأْنَفَ النّشاطَ السِّياسِيَّ في صُفوفِ حركةِ الانْتِصارِ للحُرِيّاتِ الدِّيمُقراطِيّةِ، وعَايَنَ مَا ارْتكبتْه السّلطاتُ

الاسْتعماريّةُ مِن جَرائمَ فِي حقّ الْمُتظاهرين سِلْميًّا في 08 ماي 1945، فَكَانَ ذلك مِنْ أقْوى الأسْبَابِ لانْخِراطِهِ في صُفوفِ المُنَظمَةِ الخَاصّة (الجناحِ العسكريّ لحركةِ الانْتِصار). ومنْذُ ذلِك الحينِ عرفَتْ حياتُهُ مُنْعرجًا هامّا وخطيرًا؛ عُرِف عنْهُ بَعْدَهَا نَشاطُهُ الدّؤوبُ في التّوعِيَةِ والتّعْبِئَةِ، وتَجْنيدِ الشَّبابِ، فاخْتَارَهُ مسْؤولوهُ لِيكونَ همْزةَ وَصلٍ بينَ كِبارِ رُموزِ الثَورَة.

زهراءُ: ماذا تقصِدُ بقولِك: ليكونَ همزةَ وصْلٍ بين كِبارِ رُموزِ الثّورَة؟

عبدُ الرحمنِ: نظرًا لِكثْرةِ تنقُّلاتِهِ وتَحرُّكاتِهِ السّرِيَّةِ عبْرَ القُرى، والمُدُنِ المُجاورَةِ لِمدينةِ قالمة خِلالَ تلك الفَتْرةِ، كُلِّفَ بِرَبطِ الاتّصالِ مع مَنْدوبِي المُنّظمَةِ الخَاصّـــة، ومَسْؤولِـيهَا البارِزيــنَ؛ بِهدفِ تَنْسيـقِ

المَواقِفِ فيما بَيْنَهُم؛ ومِنْ بيْن كِبارِ رُموزِ الثّورة الذين كانَ يتّصلُ بِهم بَاجِي مُختار بِناحِيَةِ سُوق أهْرَاس، وَعَمَّار بن عُودَة بِناحِيةِ عنّابة، وَصَالح بُوبْنيدر بِوادى الزَّنَاتي، وسوِيدَاني بُوجَمْعَة بِقَالمة، وزِيغُود يُوسَف بناحيةِ السّمَنْدو، وغَيْرِهم.

زهراءُ: لا أكادُ أُصدّقُ. كانَ عُثمانُ على صِلةٍ بكُلِّ هؤلاءِ الأبْطال؟!

عبدُ الرحمنِ: ليسَ ذلِكَ فحَسْبُ، بل كان عُثمانُ الرجُلَ الميْدانِيَّ للقائِدِ الشَّهيدِ دِيدُوش مُراد الَّذي كانَ يُعرفُ آنذاكَ بـ «سي قدّور». واستمرّ عُثمانُ ينْشَطُ بلا هَوادَةٍ إلى أنْ كُشِفَ أمْرُ المُنَظَّمَة الخَاصَّةِ، فأُلقِيَ عليهِ القبْضُ عام 1950، وتَعرّضَ إلى أقْسى أَنْواعِ التّعْذيبِ أثناءَ اعْتِقالِهِ، قبْلَ أنْ يَصْدُرَ الْحُكْمُ عليْه بالسَّجْن مدّةَ عاميْن.

زهراء: ماذا فعلَ بعْدَ خُروجِهِ منَ السَّجْن؟

عبد الرحمن: بعْدَ خُروجِهِ منَ السَّجْن رجَعَ إلى قرْيَتِهِ وهو أكْثَرُ تَصْميمًا على مُواصَلةِ النِّضالِ، واستَمَرَّ في تنقُّلاتِه السِّرِيَّةِ، التي شَمِلتْ مُعظَمَ مُدُنِ وقُرى شَرْقِ البلادِ، منْ أجلِ التّحضيرِ لِمرحَلة الكفاحِ المسلّح.

وبعدَ انْطِلاقِ الثَّورةِ أشْرَفَ على هَيْكَلةِ المُواطِنينَ في صُفوفِ جَبْهةِ وجَيْشِ التَحْريرِ الوَطَنِيَّيْنِ، وَشَارَكَ في العَديدِ منَ العَمليّاتِ العَسْكَرِيّةِ، التي اسْتَهْدَفَتْ مراكِزَ العَدُّو. وبِفَضْلِ تَفانيهِ في العَمَلِ، وإخْلاصِهِ لِوَطَنِهِ، وَنَجَاحِهِ الكبيرِ في العملِ المُسلّحِ أَسْنَدَتْ إِلَيْهِ قيادَةُ الثورَةِ مسْؤولِيةَ ناحية جبلِ «إيدوغ» ابتِداءً من عام 1956، فتعاظَمَتْ بذلك مَسْؤوليّاتُهُ، وتوسّعَتْ نشاطاتُهُ ضِدّ العدوّ، مُوَظِّفًا أثناءَ ذلك

خِبْرَتَهُ العسْكَرِيّةَ وحُنْكتَهُ السِّياسِيّةَ، في مُواجَهَةِ آلَةِ العَدُوِّ الرّهيبَة، وتَطويرِ عَمليّاتِ المُواجَهَةِ بِدِقّةٍ وفَعَالِيَّة؛ الأمرُ الذي أهّلَهُ لِيَرْتَقِيَ إلى رُتْبَةِ ضابِطٍ أول، عُضوِ المَنْطِقةِ الرَّابِعةِ من الوِلاَيَةِ الثَّانِيةِ في مَطلَعِ 1957.

زهراءُ: هذا يَعني أنَّ نَشاطَهُ قد تعاظَمَ على مُخْتلَفِ الأصْعِدَةِ؛ يَا لَهَا مِنْ مسْؤولِيّةٍ ثَقِيلة!

عبد الرحمن: أَجَلْ، هِي كذَلِكِ يا «زهراءُ..». لكنَّ عُثمانَ الَّذِي باعَ نَفْسَهُ للعَقيدةِ والوطَنِ واجَهَ الوَضْعَ بِحَزْمٍ وعزْمٍ؛ ففي ظُروفٍ صَعْبَةٍ جِدًّا، وفي مرْحَلةٍ أَقْدَمَ خِلالَها العدُوُّ الفرَنْسِيُّ على تَكْثيفِ عَمليّاتِه الحرْبِيّة، وأحْكَمَ الحصارَ على الجزائرِ ببنائِه الخطّيْنِ المُكهْرَبَيْنِ (شال وموريسْ)، وزَرْعِه الأَلْـغامَ في المِساحـةِ الفاصِلـةِ بَيْنَهُما، اسْتطاعَ عُثمانُ

مُجابَهَةَ ذلِكَ الوضْعِ الصّعب؛ فقادَ فِرَقَ وكتائِبَ الْمُجاهِدينَ ضِدّ العَدُوِّ مُحَقِّقًا انْتِصاراتٍ مَيْدانِيَةً في جُلِّ المعارِكِ والكمائِنِ والاشْتِباكاتِ التي قادها، لإبْطال مَفعولِ مخطّط «شال».

زهراءُ: ما هُو الهدفُ منْ هذا المُخَطّطِ، يا سيِّدي؟

عبدُ الرحْمنِ: إنَّهُ مُخَططٌ جَهَنمِيٌّ وُضِعَ لتَضْييقِ الخِناقِ على الْمُجاهدينَ، وإنَّ الخَطّيْنِ الْمُكهْرَبَيْنِ (شال وموريسْ) يَدْخُلانِ ضِمْنَهُ، إلى جانبِ القِيامِ بِحَملاتِ تَمْشيطٍ كُبْرى، قام بِها العدوُّ ابْتِداءً من مطْلَعِ 1959. وضِمْنَ هذا الْمُخَطّطِ قامَ العَدُوُّ مع بِدايةِ شهْرِ جْويلية 1960 بعمليّة تمشيط كَبيرَةٍ، شَمِلَتْ جَبَلَ «إيدوغ»، تَصادَفَ خِلالَهَا أَنْ كُنْتُ مَعَ أَخِي عُثمانَ مدّورْ فِي ذَلِكَ الجَبَلِ؛ ونَظَرًا لِلحِصارِ

الذي ضَرَبَه العدوُّ حَولَنا لَمْ نستطعِ الخروجَ منه بِسلام.

الْتفَتَتْ زهراءُ إلى عُثمانَ، وقالت: حدّثني عمّا حدثَ لَكَ ولرفيقِ دربِكَ من جرّاءِ الحِصَارِ الَّذي ضَرَبَه العدوُّ حَولَكُمَا في جَبَلِ «إيدوغ».

قَالَ: أثناءَ الحصارِ اخْتَفَيْنا في خَنْدَقٍ مُنتَظرِيْن انْسحابَ العَدُوِّ، لكِنَّهُ اكْتَشَفَ موقعَنا، فتحرّكَتْ قُوّاتُهُ بأعْدادٍ كبيرَةٍ نَحْونا، فجابَهْناها بِإطلاقِ النّارِ، وصَمَدنا إلَى أنْ فُزْنَا بِالشَّهَادَة هناكَ، بعدَ أنْ حَصدَ سِلاحُنا عَددًا كبيرًا من جُنودِ العدو، بِحَمْدِ الله. وهُنا رَجَعَ الشَّهِيد عثمَان وَجَلَسَ إِلَى جَانب رَفِيقُه.

وَقَفَ الشّهيدَان وَهَمَّا بالانصراف، فوقفَتْ زهراءُ تريدُ الانْصرافَ مَعَهُما، فَقَالَ لها عُثمانُ: لاَ، يَا

زهراءُ، ابْقَيْ هنَا لِتُؤَدِي واجبَك، أمّا نَحْنُ فَقد أدَّيْنا واجِبَنا، وتَركْنا الوَطنَ أمانةً بيْن أيْدِيكُم، وَبَيْنَ أيْدي الأجْيالِ التي تَأْتِي بَعْدَكُم، فلا تُضيّعُوا الأمانَةَ، ولا تنْسَوْنا بِصالِح دُعائِكم. الوداع.

اسْتَيْقَظَتْ زهراءُ من نَوْمِها والدُموعُ تُبَلِّلُ جُفونَها، وهيَ تَقولُ: أعدُكُما بِذلِكَ، أعِدُكُما بِذلِكَ؛ رَحِمَكُمَا اللَّه وأَدْخَلَكُمَا جَنَّةَ الرِّضْوَان.

الْمَجْدُ وَالْخُلُودُ لِشُهَدَائِنَا الأَبْرَارْ